

حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ - ١١٧٥ هـ

١٧٤١ - ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق

نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

حققها ونشرها : الدكتور احمد عزت عبد الكريم

(من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٩٥٩)

رد على نقد

نشر الدكتور صلاح الدين المنجد كلمة في مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد السادس . الجزءان الأول والثاني . مايو - نوفمبر ١٩٦٠) تناول فيها بالنقد نشرى لكتاب حوادث دمشق اليومية الذى جمعه احمد البديري الحلاق الدمشقى ونقحه الشيخ محمد سعيد القاسمي من علماء دمشق فى القرن الماضى . والدكتور صلاح الدين المنجد (يحترف) منذ زمن نشر المخطوطات القديمة ، دون تخصص واضح ، وقد مكنته وظيفته السابقة فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية من المضى فى هذا العمل ، وكان الدكتور المنجد قد ذكر لى بعد ظهور الكتاب أن لديه بعض الملاحظات وأنه سيبحث بها إلى لأستعين بها إذا أتيح للكتاب أن يطبع للمرة الثانية ، ثم إذا بي أفاجأ بنشر هذه (الملاحظات) وغيرها فى مجلة المعهد المذكور ، وهى المجلة التى اتخذ الأستاذ المنجد عمله بها وسيلة للهجوم أو التجريح . ولست أود أن أقف عند العبارات القاسية التى شاء الأستاذ المنجد أن يوجهها إلى وإلى جهدى فى هذا الكتاب ، فليس من طبعى المهاترة ، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض .

ولكنى أود أن أعرض لأهم الملاحظات التي أوردتها الأستاذ المنجد وبعض المبادئ التي قررها في كلمته ، وألزم من يتصدون للتحقيق باتباعها :

أولاً : أبدأ بملاحظة على الأستاذ المنجد نفسه وهي :

أنه بدأ كلمته بوصف البديري بأنه « طالب علم دمشق . . . كان يعمل حلاقاً بدمشق فسمى البديري الحلاق ، ولعله رأس أسرة الحلاق بدمشق التي نعرف اليوم بأسرة القاسمي . »

والواقع أن البديري لم يكن طالب علم ، لم يصف نفسه بهذا الوصف ولم يصفه به أحد . وقد تحدثنا في مقدمة الكتاب عن نشأة البديري وثقافته الدينية ، مما جعله يشب على تبجيل العلم والعلماء والمتصوفة وأرباب الكرامات وقلنا إنه نهل من تلك الثقافة الصوفية التي كانت شائعة في أيامه واتمى إلى الطريقة السعدية وأصهر إلى أسرة الجبوية ، وكان أفرادها يتوارثون مشيخة هذه الطريقة . وكانت للبديري أوراد وتساويح ذكر بعضها في كتابه . كما أن البديري كان أديباً (شعبياً) رقيق الشعور نظم (المواليا) في بعض الأحداث والرجال وعرف أدباء عصره واتصل بهم .

قلنا هذا عن البديري وإن لم نستبعد أن يكون « قد اغتم شيئاً من الفراغ فتردد على حلقات العلم في مسجد بني أمية وغيره من المساجد » وليس هذا بغريب فإننا نعلم أن الصلة كانت قوية بين طوائف العلماء والمتصوفة ، وكان أكثر علماء ذلك العصر يجمعون بين العلم والتصوف ، ومنهم من أضاف إلى هذا وذاك حرفة يحترفها من صناعة أو تجارة .

ثانياً : أخذ الأستاذ المنجد على أنى اعتمدت على النسختين المخطوطتين الموجودتين بالمكتبة الظاهرية بدمشق والنسخة المخطوطة المودعة بمكتبة تيمور باشا بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ثم علمت بوجود نسخة خطية أخرى قيل إنها

مخط المنقح بمكتبة أسرة القاسمي بدمشق ، وطلبت إلى أحد أصدقائي أن يتفضل بمراجعتها، ففعل، وخرجنا من المراجعة بأن هذه النسخة لا تكاد تختلف عن نسختي الظاهرية ونسخة تيمور .

وحقيقة الأمر — كما يعرف الدكتور المنجد حق المعرفة — أن الكتاب الأصلي الذي ألفه البديري وجمع فيه أخباراً عما جرى بدمشق الشام في السنوات التي ذكرناها من أواسط القرن الثامن عشر قد ضاع وأن المخطوط الموجود بين أيدينا — على اختلاف نسخته — هو « تنقيح » القاسمي لكتاب البديري — وقد انصرف جهدنا — وجهد كثيرين من الباحثين — إلى البحث عن الكتاب الأصلي للبديري فلم نوفق . فكان لا مفر إذا أردنا نشر هذا الكتاب القيم الذي يؤرخ لدمشق ويصف الحياة فيها في ذلك العصر من الاعتماد على الكتاب في صورته القائمة بعد أن تناوله قلم القاسمي بالتنقيح والتهديب . وكان للدكتور المنجد الحق في أن يأخذ علينا إهمالنا للنسخة الموجودة في مكتبة القاسمي — وقيل إنها بمخطه — لو أننا أهملناها . ولكننا علمنا بوجودها بعد أن أعددنا أكثر الكتاب للطبع . فطلبنا إلى صديقنا الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطني بدمشق أن يتوسط لدى السادة من أسرة القاسمي للحصول على هذه النسخة بالنسخ أو التصوير أو بأية وسيلة أخرى ، فاعتذروا وأبوا إلا أن يطلع الأستاذ العش على هذه النسخة في مكتبتهم . وأن للصديق الأستاذ أبو الفرج العش من كفاءته العلمية نزاهته وإخلاصه وصحبته للبديري وكتابه معي هذه السنين الطوال ما يجعله موضع الثقة الكاملة في هذه المراجعة التي قام بها لنسخة القاسمي ومقارنتها بنسختي الظاهرية .

وهكذا يتضح أننا لم نهمل الاطلاع على جميع نسخ الكتاب بدمشق والقاهرة ، وسواء أخذنا إحدى هذه النسخ أو تلك أساساً للعمل فقد ثبت أن الاختلاف بينها جميعاً يسيراً لا يكاد يذكر .

ثالثاً : راح الناقد يتسقط بعض الألفاظ من الكتاب ، لأبنية في دمشق لم يحدد مكانها أو لتعبيرات مما جرت به السنة العامة في دمشق في ذلك العهد البعيد .

وقد بذلت جهدي أثناء إقامتي بدمشق نحو ثلاث سنوات (١٩٤٦ — ١٩٤٩) وعن طريق الاتصال المستمر ببعض الكرام من أبناء الشام بعد ذلك في تحقيق وضبط وتفسير ما يحتاج إلى شيء من هذا ، والمطلع على الكتاب — إذا لم يكن متحاملاً تحامل الأستاذ المنجد — سيجد من ذلك أمامه جهداً ضخماً واضحاً في صفحاته التي زادت على المائتين ، عدا مقدمته العلمية الكبيرة وفهارسه . ويكفي أن أضع أمام القارئ مثالين لتحامل الدكتور المنجد وتجنيه :

الأول — أنه أخذ علينا إننا لم نحدد مكان سوق الدق بدمشق (ص ١٥٩) هذا مع أن سياق الكلام عنه في النص يدل على هذا المكان ، كما قال الأستاذ المنجد نفسه . ولكن الأستاذ الناقد قاته أنه لا يقل أهمية عن تحديد مكان سوق الدق « وهو يكاد يكون محددًا في النص » شرح معنى (الدق) نفسه وهو ما فعلنا .

الثاني — إننا وصفنا (الفرش) بأنه يطلق في الشام على وعاء من خشب (ص ١٢٥) ، فجاء الدكتور المنجد وسفه شرحنا ، وقال إن الفرش : طبق واسع غير عميق من الخشب .

غير أن هناك ألفاظاً أخرى عامية ذهب الأستاذ المنجد في تفسيرها مذاهب أخرى ، وهي مما تدق على أبناء الشام المحدثين أنفسهم ، ويختلفون فيها .

رابعاً : أخذ علينا الأستاذ المنجد أننا في شرحنا للألفاظ التركية لم نذكر المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الشرح . وردنا على هذا أننا رجعنا في ذلك إلى مصادر شتى ، من قواميس ومراجع تاريخية وأشخاص . الخ ، ومما هو جدير بالذكر أن

كثيراً من هذه الألفاظ والمصطلحات لم تحتفظ (بتركبتها) وإنما دخلها كثير من التحريف (الكتابي) من ناحية و (الموضوعي) من ناحية أخرى ، حتى لقد أصبح لها مدلولات تختلف كثيراً عن مدلولها الأصلي فشرحها لغوياً لا يفيد كثيراً .

عاب علينا الدكتور المنجد أننا « إعتدنا » على كتاب Tresse في الحج الشامي قائلاً عنه إنه « ليس بثقة » . والواقع أننا لم (نعتد) على هذا الكتاب ، وإنما رجعنا إليه عند الحديث عن الحج الشامي وأخذنا عنه ، كما فعل المنجد نفسه في بعض ما كتب ، وهو في رأينا مرجع هام في موضوعه .

سادساً : أخذ علينا الأستاذ المنجد بعض ملاحظات شكلية كعدم التزام أسلوب واحد في وضع الأقواس وعدم الإشارة إلى مكان الآيات من كتاب الله الكريم ، إلى غير ذلك من الأمور الشكلية التي يصرف فيها (محترفو) نشر المخطوطات القديمة جهدهم ، دون اهتمام كبير بلب الكتاب وموضوعه . وليس هذا من العمل العلمي في شيء .

سابعاً : وأعجب العجب ما ختم به الدكتور صلاح الدين المنجد كلمته من تقرير مبدأ خطير ، إذ نصب نفسه قيمياً على المخطوطات وحارماً على باب (جنتها) يمنع من يشاء ويمنع عن يشاء ، إذ قال في لهجة ملؤها الاستعلاء : « وقد كنا نادينا دائماً أن لا يحقق العلماء المؤرخون إلا المخطوطات التي تتصل ببلادهم التي يمشون فيها » . أما وقد خالفنا من أمره وتصدينا لنشر كتاب في تاريخ دمشق ، فهذه — في رأيه — كبيرة الكباثر لن يشفع لنا عنها الجهد الذي بذلناه في تحقيق هذا الكتاب وضبط وقائمه والتمهيد له بمقدمة علمية طويلة عن العالم العربي — وسورية خاصة — في العهد العثماني ، وفي القرن الثامن عشر على وجه الخصوص ، ولن يشفع لنا عنها إقامتنا في دمشق نحو ثلاث سنوات واتصالنا المستمر بكثير من كرام أهلها ، ولن يشفع لنا عنها حبنا لهذه المدينة الجميلة الخالدة ، واعتبارنا إياها بلدنا فعلاً ، لنا فيها مثل ما للمنجد وسواه .

ولكن ليقلمها الأستاذ المنجد صراحة . لقد ساءه أن ينشر أحد غيره — سواء
أكان من أبناء دمشق أم من أبناء القاهرة — كتاب البديري، وقد هم هو بنشره
منذ سنوات ، ولكنه لم يمض في العمل إلى نهايته (١) .

والله يهدينا سواء السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

(١) للأستاذ المنجد غرام (بجز) المخطوطات لنفسه حتى يصرف عنها الباحثين، ومن ذلك أنه علم بعزم بعض الباحثين على نشر (كناش المحاسبي) فأكان منه إلا أن نشر جانباً كبيراً من هذا الكناش (بعمله) في مجلة معهد المخطوطات، دون أي تحقيق أو ضبط مكثفياً بالوعد بتقديم دراسة مفصلة له « في وقت قريب » .